بالرفاء يا فاروق

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

في الروضة الشريفة المطهرة ، وإلى جانب المنبر النبوى الكريم ، أخذ القوم مجلسهم كما تعودوا أن يجلسوا كل يوم ؛ يجلس علىّ وعثمان وطلحة والزبير ، وسعد وابن عوف وإخوانهم من المهاجرين في سبيل الله ، يتباحثون فيما يتصل بشؤونهم ، ويتحدثون بما يهم المسلمين وينفعهم ؛ وكان لابد أن يوافيهم عمر في مجلسهم ، وينقل إليهم ما انتهى إليه من أخبار الأمصار وسير الولاة في الناس ، ويستشيرهم فيما حمل إليه من الآفاق ، فيشيرون عليه [1] ، ولكن عمر لم يحضر اليوم كعادته ، ولقد انتظره القوم أكثر مما يجب فما وافى إليهم ، قال قائل منهم : ترى ما الذى تأخر بابن الخطاب عن مجلسنا ، وأنا أعلم عنه صحة البدن وتمام العافية ، وما أعرف أن عنده من رجال العرب أو أن هناك ما يشغله عنا ، ويحمله على الخلف والتخلف ؛ فلعله قد نسى مجلسنا اليوم ، وما أحسبه قد نسيه من قبل !

قال عثمان : رفقاً يا قوم بابن الخطاب ، فقد ألقيتم عليه أعباءكم كلها فنهض بها صبوراً أميناً لا يألو جهداً في تدبير أموركم ، ولا يدخر وسعاً في سبيل راحتكم وراحة المسلمين كلهم . ولقد وسوس الناس منذ أيام فيما بينهم بأن عمر يريد أن يعرس لنفسه ، وهو جاد في اختيار الزوجة الصالحة ليفرغ لأمور الحكم بكل جوارحه ، وأحسب أن الله قد وفقه لما يحبه هو لنفسه ، وما يحبه له المخلصون من صلاح الحال ، وسعادة البيت ، فقد انتهى إلى سمعى أنه اختار لنفسه أم كلثوم بنت أبى بكر ، ومن كبنت الصديق حسباً ونسباً ، وصلاحاً وجمالاً ؟ فإن كان عمر قد تأخر عنا اليوم ، فلعله قد تأخر لهذا الأمر ليتمه على نفسه ، وليفرغ منه إلى غيره ، فما بالكم تلومون الرجل على فترة انتهزها لنفسه ، واغتنمها لتدبير بيته ؟ على أنه قد وقف عليكم كل وقته ، ومنحكم جميع تدبيره ...

قال طلحة : ولكنى أعرف يا ابن عفان أن عمر قد رُدَّ في خطبة بنت أبى بكر ، وقد كان من خبر ذلك أنه لما كشف عن رغبته لعائشة أجابته إلى طلبه ووعدته بتحقيق رغبته ، وقالت له : إن الأمر كله لك ونحن طوع أمرك ، فأنت أمير المؤمنين وصاحب الرسول ، وخليفة أبى بكر ، ولكنها إذ ذكرت الخبر لأم كلثوم رغبت عنه ، وقالت : إن عمر رجلٌ خشن العيش ولا طاقة لى باحتماله ، فتحيرت عائشة وأرسلت إلى المغيرة بن شعبة لعله يحتال فى رد عمر بالخير ، فالتقى به المغيرة وقال له : بلغنى يا أمير المؤمنين أنك خطبت لنفسك أم كلثوم بنت أبى بكر ، وهذا أمر أعيذك بالله منه ، وأرى من الخير لك ولها ألا يتم ، وما أقول هذا رغبة بك عنها أو رغبة بها عنك ، ولكنى أقوله ياعمر لأنى أحبك وأبغى لك سعادة البيت ، فأنت تعلم ويعلم الناس جميعاً أن بنت الصديق قد نشأت فى كنف أبيها ، وقد كان رحمه الله لين الجانب ، طويل الأناة ، رحب الصدر ، كبير الرفق ، فتعودت ابنته ألا تعامل إلا بلين الجانب وطول الأناة ورحابة الصدر وحسن الرفق . فلما انتقل أبو بكر إلى جوار ربه انتقلت ابنته إلى جناب عائشة ، وعائشة كما تعلم امرأة ، عندها من العطف واللين والرفق أكثر مما كان فى نفس أبى بكر . وأنت يا عمر رجل شديد المراس ، قوى الشكيمة ، تأخذ الناس بالشدة والعنف ، وأنت على النساء أشد ، وفى معاملتهن أعنف ، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها ؟ لا جرم كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك ، وأبو بكر مكانته فى المسلمين كبيرة ، وحرمته عندنا واجبة ، فليس من صواب الرأي وسداده أن تكون لك ابنته على ما تعودت فى حياتها ونشأت فى تربيتها ، وعلى ما أنت عليه من ميول وأخلاق شديدة . وإذا كنت قد كلمت عائشة ، فأنا أكفيك أمر عائشة ؛ وإذا كنت ترغب فى الزوجة الصالحة ، فأنا لك بأم كلثوم بنت علىّ من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد انتهى الأمر على هذا التدبير

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٣٨

يا ابن عفان ، وقد علمت أن مسمى المغيرة قد ارتاحت له عائشة ، واطمأن إليه عمر ، وطابت به نفس ابنة الصديق

قال ابن عوف : ألا تقصرون من حديث عمر ؛ فها هو ذا مقبل علينا يقتصد فى مشيته ، وإنى لألمحه منبسط الأسارير مفتر الثغر ، فلا بد أن يكون وراءه بشرى حميدة ، تطيب لها القلوب وتطمئن بها النفوس ، وما أتوقع من ذلك إلا الخير فيما تتحدثون به ، فانتظروا ... وأقبل عمر على القوم بالسلام وأخذ مجلسه بينهم وهو يقول : رفئونى يا أصحاب الرسول ، رفئونى يا أبناء المشيرة . قالوا جميعاً : قد رفئناك ولكن بمن يا أمير المؤمنين ؟ فما انتهى إلينا فى أمرك خبر قاطع ، ولا صح عندنا نبأ سادع

قال عمر : إنه لخير وبركة إن شاء الله ، فقد سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى ، وأنا والحمد لله قد وصلت به السبب ما استطعت ، فصحبته على الجهاد فى سبيل الله ، باذلا فى ذلك وسع الجهد وطاقة النفس . وقد أحببت أيضاً أن أتصل بنسبه فأتصل به من الجهتين وأجمع إلى نفسى الفضيلتين ، وأوثق رباطى بعروته التى لا انفصام لها ، وقد رأيت أن تكون وصلتى فى ذلك ورباطى أم كلثوم بنت على ابن أبى طالب ، فأبوها ابن عم النبى وصاحبه ، وأمها فاطمة ابنته الحبيبة ، فلعلى أكون قد وفقت إلى ما أردت ، ولعل الله بفضله وكرمه يجعلها لنا خيراً وعلينا بركة

قال قائل : نعم ما اخترت يا أمير المؤمنين ، وحبذا ما رأيت فانه الرأى الجميل ، وأم كلثوم من الحسب والنسب فى المقام الكريم ، والمكان الرفيع ، ولكنا نعلم أن علياً قد حبس بناته على بنى جعفر ، وإنه ليشتد فى ذلك ما وسعته الشدة ، فهل أجابك إلى خطبتك ، وحقق لك رغبتك ، ووصلك بنسب النبى كما تحب ؟

قال عمر : إن لذلك قصة يا أخى ، لو تعلمونها جميعاً لقلتم معى حيا الله ابن أبى طالب وجزاه خير ما يجزى به الرجل الكريم ، والعبد الصالح ، فانى إذ مددت له اليد فى ذلك قال : يا أمير المؤمنين نعم إنى حبست بناتى على بنى جعفر ، ولكنى لا أعدل بك آل جعفر جميعاً ، وأنت ما أنت فى صحبة النبى ونصرة الاسلام والجهاد للحق ؛ غير أن أم كلثوم صبية حدثة ، أحسبها لا تقوم لك بحق الزوج ، ولا تستطيع أن تصبر على شدتك ، وربما تحملت من ذلك فوق طاقتها . قلت : هون عليك يا ابن أبى طالب ، فو الله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحابتها ما أرصد ، وأنا إن نقلتها من كنف أبيها فسأنقلها إلى كنف ألين وأرحب . ألا تعلم أنى سأرعى فيها حق الله ، وحق جدها الرسول ، وحق أمها فاطمة ، وحقك أنت يا على ؟ وإذا صح لى أن أستهين بحقك أو حق فاطمة ، فما يصح لى أن أسخط الله وأغضب الرسول

ومع هذا كله فقد انطلق عنى على وما أجابنى إلى شىء ، ولا وقفنى على نهاية يصح أن أنتهى إليها . وانقضت فترات قضيتها فى تقليب الرأى وتدبير الأمر ، والحدس بما سيكون من أمر ابن أبى طالب معى ، وإذا بأم كلثوم تحضر عندى ، وإذا هى واقفة بين يدىّ على يدها بُرد مطوىّ ، تقول : إن أبى يقرئك السلام ، ويقول لك : إن رضيت البرد فأمسكه ، وإن سخطته فرده علىه . قلت لها : بارك الله فيك وفى أبيك ياسليلة الرسول ، أبلغيه أنا قد رضينا بالبرد غاية الرضا[1] ، فان رأى أن يسبغه علينا فله الفضل . ثم انطلقت عنى وقد علمتُ أن أباها قد قبل خطبتى ، وحقق رغبتى ، ثم مال على علىّ — وكان إلى جانبه — وقال : أليس كذلك يا ابن أبى طالب ؟

قال على : هو كذلك يا أمير المؤمنين ، فبارك الله لك فيها ، وبارك لها فيك . واعلم يا ابن الخطاب أنه إذا كانت الرغبة منك دعتك إلينا ، فإن الرغبة فيك أجابتك منا ، وقد أحسن بك ظناً من أودعك كريمته ، واختارك ولم يختر عليك ، وقد زوجتك ابنتى على كتاب الله ، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل الأصهار صلة للأرحام المتقطعة والأنساب المتفرقة ، فابتهل إليه أن يزيدنا بهذا الإصهار تمكينا وصلة على ما يحبه ويرضاه .

قال عمر : وأنا قد أمهرتها أربعين ألفاً ... وإنى لأقول ماقال النبى فى ذلك : اللهم بارك لى فى أهلى وبارك لأهلى فى ، وارزقنى منها وارزقها منى ، واجمع بيننا ما جمعت فى خير ، وإذا فرقت بيننا ففرق فى خير ، اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنى

قال الجالسون جميعاً : وإذن فبالرفاء والسعد يا أمير المؤمنين، وبالرفاء والسعد يا فاروق

محمد فهمى عبد اللطيف

(١) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٣٣٩